

اللغة العربية بين الواقع والادعاء

الأستاذ محمد محمد الخطابي

وما كانت لتعد مشاكل ونواقص تحول دون الخلق والتأليف والابداع . وانما كان الغرض من خلق هذه المشاكل اثاره البلبلة بين ابناء هذه اللغة وبث الشكوك فيما بينهم ازاء هذه اللغة التي يعرفون هم انفسهم جيدا انها لغة تتوفر على جميع مقومات اللغات الحية المتطورة الصالحة لكل عصر ، ثم هم فعلوا ذلك متوخين القضاء عليها واحلال محلها لغة المستعمر الدخيل ، من هذه المشاكل التي اثرت على سبيل المثال ، مشكلة الحرف العربي ، مشكلة النحوي العربي ، مشكلة الشكل ، العامية والفصحى .. الخ .

ويجدر بنا ان نتوقف قليلا عند كل نقطة من هذه النقاط في محاولة معرفة هل هي حقا مشاكل حقيقية تعاني منها اللغة العربية ام ان لغتنا براء من هذه الادعاءات ؟

اما بالنسبة للحرف العربي فقد تعددت محاولات اصلاحه وتحسينه ولكنها باءت كلها بالفشل الذريع ، وظلت الغلبة للاشكال المتوارثة التي كتبت بها عشرات الآلاف من الكتب في مختلف الميادين العلمية والفلسفية والادبية .. وسواها ، قالوا ان شكل

لقد كثرت الدراسات ، وتعددت المناقشات في ايماننا هذه ، عن اللغة العربية وعن مدى قدرتها على استيعاب علوم العصر ، وتخوف فريق من عدم امكان اللغة العربية مسايرة هذا العصر المتطور المذهل . كما تحمس فريق آخر فابرز امكانات هذه اللغة مستشهدا بتجربة الماضي حيث بلغت اللغة العربية فيه في نقل العلوم وترجمتها شأوا بعيدا ، ولقد كثر الكلام في هذا المجال حتى كاد يصبح حديث جميع المجالس والمنتديات في مختلف البلاد العربية ، فهل تعاني العربية حقا من هذا النقص ؟ وتعيش نوعا من العزلة لدرجة انها في حاجة الى دفاع ومناقشات من هذا القبيل ؟

واحقا للحق يمكن القول بأن اللغة العربية ليست في حاجة الى ارتداء درع الوقاية يحميها هجمات الكائدين ويرد عنها شماتة المفرضين ، اذ تؤكد كل الدلائل قديما وحديثا - ان هذه اللغة - كانت وما تزال لغة حية مكتملة الجوانب اللهم ما يريد ان يلحق بها بعض المتشككين من نعوت وعيوب كانت قد اثارها زمرة من المستشرقين الحاقدين في منتصف هذا القرن حيث أوجدوا موضوعات لم يكن لها وجود قبلهم ،

اسم الكاتب سلامة موسى في مصر الذي تحمس لهذه الفكرة وقدم تبريرات ومقترحات في شأنها يقول في هذا الخصوص : « هذا السخط الذي يتولانا كلما فكرنا في حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافي ، تزيد حذته كلما فكرنا وادى بنا التفكير الى اليقين بأن اصلاحها مستطاع ، والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار اعم . ولذلك كلما نجد الشجاعة للدعوة الى اصلاح الجرىء الا في رجال نابيهين لا يبالون الجهلة والحمقى مثل قاسم امين ، او أحمد امين في الدعوة الى الغاء الاعراب ، ومثل عبد العزيز فهمي حيث يدعو الى الخط اللاتيني هو وثبة المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا ان ننقل مصر الى مقام تركيا (١) التي اغلق عليها هذا الخط ابواب ماضيها وفتح لها ابواب مستقبلها » .

ولقد قدم سلامة موسى بعض المقترحات نجملها فيما يلي :

هذا الاقتراح يحتاج اولا الى الغاء الاعراب وميزاته :

اولا : الاقتراب من التوحيد البشرى لانه وسيلة القراءة والكتابة عند المتبرنين الذين يملكون الصناعة اى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الامم التي ترغب في التجدد كما فعلت تركيا ، ومن المرجح ان يعمم هذا الخط العالم كله تقريبا .

وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتيني يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشؤومتان : شرق وغرب ، فلا تتغير من ان نعيش العيشة العصرية ولان يجبر هذا الخط في اثره كثيرا من ضروب اصلاح الاخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية ايضا ، الخ .

وثالثا ورابعا وخامسا :

وسادسا : اننا عند ما نكتب بالخط اللاتيني نجد

الحرف الراهن وتركيبه لا يتفق والعصر ، وإن رصف صفحة بالخط الفرنجى يعادل في الزمن رصف صفحتين في الخط العربى لتزايد عيون الحرف العربى التى تتعدد وتتغير بتغير مواقعها في الاول او الوسط او الآخر وهكذا .. نقدم لنا كثير من الباحثين اشكالا متباينة لخط جديد تشبه الى حد بعيد رسوم الخط الفرنجى ، غير أن القارئ العربى يكتشف منذ الوهلة الاولى انها في غالبيتها اشكال غريبة عليه يجهلها ذوقه العربى السليم ، بل انها في بعض الاحيان تكلفه عناء شديدا في هجاء حرف واحد منها ! والحقيقة التى تتضح بعد ذلك هى أن جمالية الخط العربى او حرفه لا تبارى « فقد ثبت الآن أن الحرف العربى حرف مثالى في جمال تكوينه وشكله وتنوعه والتوائه واستوائه وتعريجاته واختصاره ، وأن الصفحة الواحدة من الكتاب العربى لو كتبت بالحرف اللاتينى لاحتاجت الى صفحتين على الاقل ، فالكتاب المؤلف من مائة صفحة بهذا الخط الجميل لا يمكن رصفه بأقل من مائتى صفحة بالحرف اللاتينى ، ثم ان تطور الطباعة اليوم يتجه اتجاها سريعا نحو اللوتيتيب والمونوتيب . ومعنى ذلك هو العدول بالتدريج عن اسلوب الرصف الحرفى واختصار القوالب الى نحو 160 فقط ، وقد توصل بعض العلماء الى ابتكار رسم حديث للحرف العربى لا يخرج عن شكله ولا يبعده عن اصله ولا يزيد قوالبه على المائة والامل قريب بتوفيق جامعة الدول العربية الى حل مشكلة الحرف حلا سريعا وموضوعيا تسهل به الكتابة على الراقنة وفى المطابع بحيث تسقط دعوى الداعين الى الحروف اللاتينية وينعقد خصومنا معركة » (1) .

حقا انه لمن السخف أن نجد بين ظهرانينا من تسمح له نفسه بالدعوة الى استبدال الحرف العربى بالحرف اللاتينى متخذين مما ابتدعه مصطفى أتاتورك للغة التركية مثالا يحتذى وكذلك بدعوى السهولة واليسر وضبط الكتابة وابرار حركات الحروف ، وهذه دعوى باطلة من اساسها تحمس لها بعض ذوى النيات السيئة من اعداد هذه اللغة عربا كانوا ام اجانب ، ومن بين المفكرين الذين تحمسوا لهذه الدعوى ذوى الثقل الخاص في العصر الحديث يذكر

(1) انظر مجلة « اللسان العربى » المجلد التاسع الجزء الاول ص 9 . ضمن مقال ثورية التعريب للاستاد عبد العزيز بنعبد الله :

أن تعلم اللغات الأوروبية قد سهل أيضا ، فنتفتح لنا
اتفاق هي الآن مغلفة (2) .

ويختم سلامة موسى هذه المقترحات بالتساؤل
التالي : « وبالجمل نستطيع أن نقول أن الخط اللاتيني
هو وثبة في النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر
التي تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه
الوثبة ؟

إن القارئ الكريم يلاحظ — لا شك — كم في
هذه الدعوة من مغالاة كما أنه يتبين له ولا ريب أنها
لا تستند الى أساس سليم تبني عليه وإنما هي دعوى
تخريب أكثر مما هي دعوة بناء ، فهي بالتالى دعوة
باطلة كغيرها من الدعاوات المشبوهة التى لا ترمى
سوى الى تشتيت التراث العربى وتشويهه ، ولقد
حاق بدعوة سلامة موسى فشل ذريع كما باعث بالفشل
دعاوات غيره من أمثال أمين شميل ، وعبد العزيز
فهيمى وقبلهما الدكتور سبيتا ، وويلمور ، ووليم
ويلكوكس ، وغيرهم من المفرضين . « وظلت السيطرة
للحرف العربى » ثم ماذا كان سيفعل هؤلاء في كثير
من الحروف العربية التى لا تجد لها رسما سوى في
النطق العربى كحروف : الحاء ، والفاء ، والعين ،
والذال ، والضاد ، والطاء ، والقاف ، والشاء ،
والهاء .. الخ . ثم ماذا سيكون موقفهم من التراث
العربى المكتوب بحروف عربية ؟ وهكذا وثدت هذه
الدعوة في مهدها .

نتنقل بعد ذلك الى مسألة النحو العربى ، إن
النشأ من متعلمى اللغة العربية يتكون من صعوبة
نحوها ، والحق أنه ما من « نحو » في أى لغة من لغات
الأرض الا ويعانى أصحابها من هذه الشكوى . ولقد
أصبح « نحو » اللغة الألمانية مضرب الأمثال في
الصعوبة والتعقيد على أن قواعد العربية ليست أشد
صعوبة من هذه اللغة أو تلك ، يقول الدكتور : محمد
كامل حسين في دراسة قيمة له عن النحو العربى :
« والواقع أن قواعد اللغة العربية بسيطة جدا يمكن
الإلمام بها بعد درس غير مرهق ، ولا يحتاج المتعلم بعد

ذلك الا الى المراتب على تطبيق هذه القواعد الشاملة
فيمستقيم بذلك لسانه دون عناء كبير (3) . إن الخطأ
الفادح الذى يقع فيه مخططو مناهج التعليم عندنا كونهم
يلقنون القواعد في صورتها الجافة قبل النصوص ،
في حين أننا نجد أن القائمين على مناهج التعليم فى
المدارس الأوروبية على اختلافها يعمدون التلميذ على
التعامل مع النص — فى المقام الاول — فهو يقرأ ويميد
ويحفظ من غير أن يكون ذا الملم واسع بعلم النحو ،
ثم يطبق — بعد ذلك ما قراه على القواعد ، فإذا أردنا
الخروج بنحونا من صلابته وجفوته علينا أن نكثر في
المراحل الاولى من مناهج تعليمنا من النصوص وما
أغنى لفتنا العربية بشتى أنواع هذه النصوص على
اختلافها ، فالتعامل مع النص يكسب الطالب أو
المتعلم سليقة فطرية ويعوده بطريقة تلقائية على
اشكال الحروف وبنائها وتراكيبها وتعقد أساليبها ،
والتاريخ العربى يقول لنا أن النص سابق للنحو ، فقد
وجدت النصوص منذ كانت العربية ، أما النحو « كعلم
قائم مدون » فلم توضع مبادئه الا في زمن متأخر
جدا أى في القرن الاول الهجرى أيام على بن أبى
طالب ، وكلنا يعرف قصة أبى الاسود الدؤلى مع ابنته
وغيرها من القصص التى تروى في مجال سبب وضع
النحو العربى .

لقد كانت العرب اذن تنطق بالسليقة ، ولا
تخطئ أبدا في كلامها من غير أن تعلم لماذا كان الفاعل
مرفوعا ولا المفعول منصوبا ، كما أن كثيرا من علماء
العربية وواضعى معاجمها المشهورة كانوا يقتصدون
الاعراب في البوادر حيث العربية سليمة نقية غير
مشوبة فيأخذون عنهم النطق الصحيح ، ومعروف عن
الزمخشري هذا حيث أنه في « أساس بلاغته » كان
يؤم البوادر العربية ويسجل المعانى المستعملة عندها
وهكذا الشأن مع باقى لغوى العرب .

أذن فالشكوى من النحو هي شكوى من قواعده
الجافة الموضوعة في قوالب مملّة شأنها شأن القوانين
الجامدة ، أما اللغة العربية فالدليل قائم — قديما
وحديثا — على أن المراتب والمتابعة والممارسة كل
أولئك يكسب الدارس لها مهارة فائقة على التركيب

(2) سلامة موسى ، البلاغة العصرية واللغة العربية ص 109 . نقلا عن اللغة العربية وعلوم العصر ،
للدكتورة بنت الشاطيء « اللسان العربى » المجلد الرابع عشر ج 1 ص 15 .

(3) مجلة « مجمع اللغة العربية » القاهرة ، فبراير 1971 ص 26 .

السليم والنطق الصحيح ، وكم من متعلم أو كاتب لم يدرس القواعد قط ومع ذلك يستطيع أن يكتب ويؤلف نتيجة الممارسة والقراءة المتواصلة ، ألم يقل الشاعر :

ولست بنحوى يلوك لسانه
ولكن سليقى أقول فاعرب

القول المعرب اذن قوامه القراءة الكثيرة والخوض في النصوص وهذا ما نرجو أن يتم في مناهج دراستنا أى مضاعفة حصص النصوص ، وبالمقابل حسن اختيار القواعد ، وانطلاقاً من النص ودراسته نستنتج القاعدة التى بنى عليها هذا النص ، وهذا مغناه التطبيق الفعلى للدراسة النظرية .. فأنت قد تتعلم أى علم من العلوم أو أى فن من الفنون ، الطب السياسة ، الخيالة .. الخ فى حجرة مغلقة تدرس قواعد هذا الفن أو ذلك العلم ولكنك فى الحقيقة لن تفيد شيئاً الا اذا طبقت ذلك بطريقة عملية فتكسب من ثم مهارة التطبيق مع حسن النظر والدرس .

وكم هى محاولات تبسيط النحو العربى التى تقدم بها كثير من الدارسين فى مختلف البلاد العربية غير أنه ظل ما يقدمونه حبراً على ورق ميثوثاً فى مختلف أدراج المؤسسات اللغوية العربية دون أن يغير شيئاً من المشكلة القائمة ، الحل اذن يكمن فى محاولة الاكثار من النصوص بما يتلاءم ومستوى المتعلم ..

أما مسألة الشاذ فى اللغة الذى يخرج عن المألوف والاستعمال يظل صورة متخفية لنطق بعض القبائل العربية القديمة لا ينبغي أن نأخذ به ، فالشاذ أو النادر لا حكم له كما يقال . وتنبثق عن مسألة النحو العربى مسألة أخرى يرى فيها البعض مشكلة قائمة بذاتها لا تقل أهمية عن غيرها من المشاكل التى تعانى منها اللغة العربية ، وهى مسألة « الشكل » شكل الحروف العربية تقادياً للفموض واللبس والابهام وتعدد المفاهيم . وهناك اتهام مشهور بوجه لانباء اللغة العربية — فى هذا الصدد — وهو أنه حتى كبار دارسيها يحارون أو يتعثرون فى بعض الأحيان عند قراءة نص من النصوص العربية بخافة الخطأ أو

اللحن ومن أجل شكلها شكلاً صحيحاً . على حين أننا نجد القارئ الفرنسى — مثلاً — حتى وإن كان دون مستوى مرحلة البكالوريا يقرأ النصوص فى لغته بطلاقة من غير أن يرتكب خطأ واحداً ، وهذه من أخطر الاتهامات التى توجه للفتنا ويرى فيها الباحثون رأيين الأول يقول : ان اللغة العربية ليست صعبة كما يدعون ، بل ان النقص كامن فىمن لا يجيدها حق الاجادة ، واذا كان المرء عالماً بأصولها ، مطلعاً على أسرارها ، دارساً لقواعدها ، ملماً بأساليبها ، فانه لن يخطئ أبداً ! فى حين يذهب الراى الآخر الى عكس هذا على الاطلاق فيقرر ان العربية فعلاً تشكو من هذه النقيصة ، فيها يخص شكل الكلمات على الأقل ، حقا هناك كلمات يحار المرء فى قراءتها القراءة الصحيحة وقد يقرأها على غير حقيقتها . وهناك أخرى يمكن نطقها على خمسة أو ستة أوجه ، وهذه مشكلة فى حد ذاتها ولكن كما أسلفت مع المران والقراءة المتعددة وتتبع السياق كل ذلك يساعد على تقادى امثال هذه الامور التى لم تحل أبداً دون التأليف والخلق والابداع المستمر على امتداد تاريخ العربية الحافل بجليل الآثار فى كل علم . وبخصوص « الشكل » اقترح بعض الدارسين ضرورة الزام الحركات مع الكلمة بتصويرها فى آخرها بحيث تشكل حرفاً جديداً قائماً بذاته ، فى حين اقترح آخرون كتابتها بازاء كل حرف على غرار الحرف اللاتينى !

وقد بذل بعض العلماء العرب محاولات موفقة فى هذا الصدد ، فقد وضع بعضهم رسومات للخط العربى لا يتطلب الطبع بهذه الحروف الجديدة سوى الى تسعين حرفاً فى حين كان يتطلب الطبع بالحروف العربية العادية بالشكل التام خمسة وسبعين وأربعمئة حرف من الحروف المحززة (التى حازرت لتتراكب وتتداخل) وما يزيد على ثمانمئة حرف من الحروف الغير المحززة » (4) ..

وقد طبقت بعض هذه النماذج فى بعض الكتب والصحف المغربية فلاتت اقبالا واستحسانا وهى لعمري حروف مقبولة لا غبار عليها ، من أهم مميزات الزامها الشكل فى جميع الحالات ، ثم هى لا تغير من صورة الحرف العربى ولا تفقده جماليته .

(4) انظر الرسم النموذجى لمشروع اصلاح الطباعة العربية (اللسان العربى) ، المجلد التاسع الجزء الاول ص 218 بتاريخ 1972 ، للاستاذ أحمد الاخضر غزال .

وحرار قوم في هذا العصر في استعمال الفصحى أم العامية ؟ ولقد تعددت الدراسات في هذا المجال بين مؤيد للعامية متعصب أعمى لها بدعوى التبسيط والسهولة واليسر ، وبين مستمسك بالفصحى لا يرضى بها بديلا ، والحقيقة التي أثبتتها السنون أن الغلبة دائما كانت للفصحى ، على الرغم من كيد الكائدين فكم من كاتب نادى وتحمس بل وكتب ووضع تعابير خاصة للعامية (5) قصد نشرها وتعميمها في محاولة القضاء على الفصحى ، والغربة أن هؤلاء الذين كانوا متحمسين للعامية عادوا جميعا يكتبون بلغة عربية فصحى ناصعة صافية نقية سليمة وفي فترة ما من فترات حياة أديبنا الكبير المرحوم محمود تيمور كان قد تحول عن الفصحى إلى العامية بل أنه كتب قصصا بها غير أنه سرعان ما عاد ، كاتباً عربياً مبيناً بل ومتحمساً كبيراً للفصحى ومدافعاً عن لوائها كعضو بارز في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أحد أعرق معاتل الدفاع عن الفصحى وتراثها .

ان العالم يركض ويجرى من حولنا والحضارة تتذف الينا بعشرات المصطلحات يوميا ، والاختراعات تلو الاختراعات تترى في حياتنا المعاصرة . . . والسنون لا ترحم ، تطوى بعضها طيا ، ونحن ما زلنا نطيل

النظر ونقبادل الراى فى أمور كان ينبغي تفاديا منذ نصف قرن كائننا نحى لغة مواتا وكان لم يكننا دليلا شهادة أربعة عشر قرنا من الزمان (على حد قول ماسنيون) برهنت فيها اللغة العربية بأنها كانت دائما لغة علم بل وقدمت للعلم خدمات جليلة باعتراف الجميع كما أضافت اليه إضافات يعترف لها بها العلم الحديث ، فهى اذن لغة غير عاجزة البتة على المتابعة والمسايرة والترجمة والعطاء بنفس الروح والقوة والفعالية التى طبعتها على امتداد قرون خلت ، ويتضح لنا بالتالى أن ما ندعيه مشكل فى اللغة العربية ليست سوى حواجز يضمها الحاقدون عثرة فى سبيل اللغة ويختلقها الناقمون على تراثها وحضارتها ، ولا أجد ما أختتم به هذا العرض خيرا من كلمة الدكتور عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء ، التى تقول : « وإذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التى جاعتها من الإجابات الغريبة ومن إبنائها المفترين ، تجارينا باللهجات العامية حيناً وبالخط اللاتينى حيناً آخر ، وتتهننا بالبداءة والعقم فتعزلنا عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر ، أقول اذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلانها دون ريب تملك القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتبئين لها بالموت » (6)

(5) انظر كتاب : سلامة موسى البلاغة العصرية واللغة العربية ص 75 . عن بحث الدكتور بنت الشاطيء المشار اليه سابقا .

(6) اللغة العربية وعلوم العصر (بنت الشاطيء) من كتاب المؤلفة « لغتنا والحياة » .